مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ **ISSN:** 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 18 عدد: 01 أوت 2022
العنوان: مجالس الأنس والطرب في الأندلس... ص.ص 623- 638.

مجالس الأنس والطرب في الأندلس – عهد ملوك الطوائف أنموذجا 5ه/11م -

هاجر صاحي[1]، توفيق مزاري عبد الصمد[2]
1- طالبة دكتوراه بجامعة يحي فارس- المدية -
Sahi.hadjer@univ-medea.dz
2- أستاذ التعليم العالي بجامعة يحي فارس- المدية -
Mazari.toufik@univ-medea.dz

تاريخ الإرسال: 2020/01/18 ؛ تاريخ القبول: 2021/04/05

Majlis al-Nas and al-Tarab in Andalusia - the era of the kings of the sects model 5 AH / 11 CE -

Sahi, Mazari Abdessameud.

Abstract:

Souls and ritual councils are among the aspects of social life that Andalusia was famous for during the era of the kings of the sects (5th century AH / 11AD AD). Despite the bad political and security conditions at the time, Andalusians clung to life and its pleasures, especially with the beauty of nature and the life of luxury and extravagance, so they went to establish human councils in which they could be forgetful and cheerful. They even deviated from the teachings of Islam, and this situation did not prevent neither the rulers, nor the statesmen, nor even the public class from continuing with that.

Keywords: Tarab; Wine; Andalus; kings of Denominations; Andalusian society.

الملخص:

تعدّ مجالس الأنس والطرب مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية التي كانت شائعة بالبلاد الإسلامية بصفة عامة، وبالأندلس بصفة خاصّة، ولاسيما في عهد ملوك الطوائف (القرن5ه/11م)، ذلك العهد الذي ازداد فيه تحرّر الفرد الأندلسي واشتدّ فيه تعلّقه بالحياة وملذّاتها رغم الأوضاع السياسية والأمنية السيئة آنذاك، وللهروب من الواقع المعاش، وبتأثير من الطبيعة الأندلسية الخلاّبة، ونظرا لشيوع ظاهرة

الترف والبذخ أواسط المجتمع الأندلسي، توجّه أفراده باختلاف طبقاتهم إلى إقامة مجالس اجتماعية ليأنسوا فيها ويطربون ويمرحون، إلى درجة وصول الأمر إلى الانزلاق والخروج عن تعاليم الدين الإسلامي، وهذا الوضع لم يمنع لا الحكام ولا رجال الدولة من وزراء وقادة ولا حتى الطبقة العامة من الاستمرار في ذلك، حيث عشقوا تلك الليالي التي كانت تُدار فيها كؤوس الخمر، مع الموسيقى والرقص، وإنشاد أبيات الغزل .

الكلمات المفتاحية: الطرب؛ الخمر؛ الأندلس؛ ملوك الطوائف؛ المجتمع الأندلسي.

مقدمة:

اشتهر المسلمون في العصر الوسيط بعقد المجالس والاجتماع فيها وتبادل أطراف الحديث في مختلف المجالات، وبمرور الزمن ومع تطوّر الدولة الإسلامية ظهرت مجالس اجتماعية اتّخذها المسلمون كمجال للترفيه والتسلية مع المقربين من الأحباب والخلاّن، واقترن ذلك بشيوع ظاهرة الغناء أواسط المجتمع المسلم فامتزجت الظاهرتين لتتشكلّ بعد ذلك ما يسمّى بمجالس الأنس والطرب.

وكانت بلاد الأندلس من الأقطار الإسلامية التي انتشرت فيها هذه المجالس وازدادت بشكل كبير في عهد ملوك الطوائف خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حيث تعلّق المجتمع الأندلسي بحياة اللّهو والطرب أكثر من أي وقت مضى، الأمر الذي دفعني للبحث في الموضوع والتساؤل حول نشوء هذه الظاهرة بالأندلس، وطرح الإشكال التالي: هل ظاهرة مجالس الأنس والطرب في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف هي مجرّد وسيلة للترفيه عن النفس أم هي ظاهرة اجتماعية ناشئة عن ظروف وعوامل تستدعي الوقوف عندها؟ وهنا تكمن أهميّة الموضوع، فمن خلال الإجابة عن هذه الإشكالية بالاعتماد على وصف الظاهرة وتحليلها ستتّضح لنا حقيقة نشوئها وتطوّرها وما نجم عنها.

أوّلا: طبيعة المجالس في الدولة الإسلامية:

إنّ أوّل ما ينبغي الوقوف عنده قبل التفصيل في طبيعة المجالس، هو

تعريفها وتحديد مفهومها وذلك لإعطاء صورة توضيحية عنها وعن مجالاتها، فكلمة "مجلس" اشتقّت من المادّة اللّغوية "جلس" والتي تدلّ على معان كثيرة منها: جلس: من الجلوس: وهو القعود؛ جلس يجلس جلوسًا، فهو جالس من قوم جلوس وجلّاس، وأجلسه غيره (ابن منظور، (د. ت. ن): 39)؛ (الفراهيدي، 1424هـ/2002: 253)؛ وجالسته فهو جلسي وجليسي (الجوهري، 1399هـ/1979م: 914).

والجِلسة بالكسر: وهي الحال التي يكون عليها الجالس(الجوهري، 1399هـ/1979م: 914)، أما بالفتح: فهي حصّة من الوقت يجلس فيها جماعة مختصّون للنظر في شأن من الشؤون، وهي مغلقة إذ لم يشهدها إلاّ أعضاؤها، ومفتوحة إذا شهدها آخرون معهم (مدكور، 1425هـ/2004: 130) ، والمجلس: هو موضع الجلوس (الجوهري، 1399هـ/1979م: 914)، والطائفة من الناس (مدكور، 1425هـ/2004: 130)؛ ويمكن أن يكون مجلسًا خاصًّا، أو مجلسًا عامًّا (الجبوري، 1427هـ/2006: 38).

ومن خلال هذه التعاريف تتضح لنا ملامح المجلس أيّا كان نوعه، فمن شروط عقده توفّر المكان وحضور الأفراد، ولا نسمّي المجلس مجلسًا إلّا بوجودهما، هذا من الجانب الشكلي؛ أمّا من حيث المضمون فهو راجع إلى اختصاص الجماعة العاقدة له، لذا نجد أنّ المجلس قد يكون مجلس حكم واستشارة، أو مجلس قضاء، أو مجلس علم وأدب، أو مجلس أنس وطرب.

والمجالس في الدولة الإسلامية تأثرت بالبيئة والزمان والحالة الحضارية (الجبوري، 1427هـ/2006: 39)، ففي بدايتها كانت بسيطة متواضعة (الخربوطلي، 1415هـ/1994م: 142)، ثم انتقلت بعد ذلك من حالة البداوة إلى حالة الحضارة (الجبوري، 1427هـ/2006: 39)؛ نتيجة تمازج الحضارات بعد الفتوحات الإسلامية وخاصة على منطقتي الشام والعراق (أنظر التعليق رقم1) وبلاد الأندلس، والتطوّر الحاصل على المجالس كان على مستوى الشكل والمضمون، وخاصّة مع تغيّر فكر الفرد المسلم الذي أصبح يتطلّع إلى حياة التحضّر والرفاهية.

إنّ من مظاهر تطوّر مجالس المسلمين من حيث الشكل، هي أنّها أصبحت تعقد في القصور ذات القاعات الكبيرة المفروشة بأجود

الأفرشة، والمزيّنة بأجمل الزينة والنقوش، والمضاءة بالشموع الموضوعة على المناور الذهبية والفضية، بالإضافة إلى إسبال الستائر الحريرية المطرزة على نوافذ القاعات وأبوابها (الجبوري، 1427هـ/2006: 40)، وهذه الأخيرة أصبح ينتصب أمامها الحُجَّاب (أنظر التعليق رقم2) من أجل تنظيم دخول المعنيين بالمجلس، وهذا الأمر لم يكن في عهد النبي ρ والخلفاء الراشدين ψ (شنقارو، (د. ت. ن): 125).

أمّا التطوّر الحاصل لها من حيث المضمون، هو أنّها تعدّدت وتنوّعت اختصاصاتها وموضوعاتها، وقد سبق وأن أشرت إلى ذلك عند التعريف بالمجلس، فانقسمت المجالس على نفسها، وأصبحت هناك مجالس للحكم والقضاء، وأخرى للعلم والتعليم، وغيرها للمنادمة والترفيه، وهذه الأخيرة هي محور هذا البحث، فمجالس الأنس والطرب التي ظهرت في الدولة الإسلامية شاعت في مشارقها ومغاربها وأصبحت من أهمّ مظاهر الحياة الاجتماعية بها، ولا سيما في بلاد الأندلس بلاد الطبيعة والجمال ورونق الحياة، البلاد التي أصبح سكّانها يتغنّون بملذّات الحياة وشهواتها من خمر وغناء وجواري وغلمان.

ثانيا: مجالس الأنس والطرب بالأندلس بين التأثير المشرقي والانحلال الأخلاقي:

رغم وجود العناصر المشرقية في بلاد الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بها سنة 138هـ/755م إلاّ أنّها لم تؤثّر بالشكل الذي أثّرت به العناصر الدخيلة النازحة من المشرق بعد ذلك في نقل التقاليد المشرقية، وخاصّة في الجانب الاجتماعي، ومنها ظاهرة عقد مجالس الغناء والشراب.

ويعدّ عبد الرحمان بن معاوية(172-138هـ/756-788م) المعروف بالداخل مؤسس الدولة، من بين الذين كانت لهم إسهامات فعلية في نقل تقاليد البيئة المشرقية إلى بلاد الأندلس كونه سليل البيت الأموي، فبني أميّة بالمشرق اعتادوا على عقد مجالس الأنس ومجالسة أصحاب اللهو والسمر (أنظر التعليق رقم3)، وعبد الرحمان الداخل في عهده كان يملك جارية ماهرة في الغناء والعزف تدعى العجفاء (المقري،

1408هـ/1988م: 141- 142)، واستمرّ اهتمام حكّام بني أميّة بمجالس الأنس والطرب في الأندلس إلى انقضاء دولتهم سنة 422هـ/1031م.
واقترن ازدياد ظاهرة مجالس الغناء والطرب بالأندلس مع تدفق المدّ المشرقي الذي حمل معه مؤسّس المدرسة الموسيقية بالفردوس المفقود، ألا وهو المغني الشهير زرياب، الذي دخل الأندلس في عهد الأمير الأموي عبد الرحمان الأوسط(206- 238هـ/822- 852م) (مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، 2004: 332)(أنظر التعليق رقم4) وأحدث ثورة اجتماعية في المجتمع الأندلسي بأعماله الفنية، والتي استمرّت آثارها إلى ما بعد وفاته لقرون طويلة، مترسّخة في نفوس الأندلسيين الذين أدمنوا على الغناء والموسيقى المصحوبة بالرقص والشراب، وإقامة المجالس الخاصّة بذلك.
منذ ذلك الوقت شاع عن الفرد الأندلسي بأنه عنصر محب للّهو والغناء، وهذا ما جاء في وصف المقري نقلا عن ابن غالب في كتابه "فرحة الأنفس" الذي جاء في قوله: «لأهل الأندلس حسن الهمّة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للّهو والغناء...» (المقري، 1408هـ/1998م: 150)؛ لكن هذا الأمر لم يجلب الخير للمجتمع الأندلسي وخاصّة في عهد ملوك الطوائف (5هـ/11م)، أين ازداد شغفه بمجالس الغناء والشراب وعَظُم أمر ذلك لدرجة لم يسبق لها مثيل، حتّى وصل الأمر إلى الانحلال الأخلاقي، الأمر الذي جعل فضلاء الأمة يدقّون ناقوس الخطر بشأنه.
فرغم انتشار الإسلام في بلاد الأندلس وتجذّره في نفوس أهلها، ورغم وجود علماء أفاضل قاموا بمجهودات جبّارة من أجل زرع الأخلاق والقيم النبيلة وسط المجتمع الأندلسي، إلاّ أنّ الوضع انفلت بانفلات حبّات المسبحة في أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فالفرقة والتشتّت اللّذان أصابا الأندلس في تلك الفترة وتسبّبا في ضعف الهيكل السياسي للدولة الإسلامية بالمنطقة، واستهتار الحُكّام بأحكام الدين، وضُعف النفس البشرية الأمّارة بالسّوء والراضخة للأهواء، جعلت المجتمع الأندلسي ينحدر إلى مستوى اجتماعي أخلاقي يُؤسَف عليه، حيث كان انحرافا شديدا صَعُب التحكّم فيه أو كبحه.

والانحراف في التصوّر الإسلامي هو ترك الحقّ والوسطية والاستقامة، ومَن انْحَرَف عن طريق الحقّ وقع في طريق من طرق الضلال (عبد الصمد، 2007: 147-148)؛ وكيف لا؟ وهو خروج عن القيم والمعايير الإسلامية، وهذا فعلا ما وقع في عهد ملوك الطوائف، فما الذي يُحصَد من تهاون المسلم بتعاليم الإسلام؟ وما الذي يُنتَج عن الرضوخ للدنيا وملذّاتها المحرّمة؟ وما الذي يُكسب من اغتصاب الحقوق وكثرة المظالم؟

إنّ حكّام الأندلس في عهد الطوائف استهانوا بحرمة الدّين وضيّعوا القيم والمبادئ، وكان شغلهم الشاغل الاستمتاع بحياة الترف والبذخ والصراع مع بعضهم البعض من أجل العزّ والسلطان، وكانت لياليهم لا تخلو من مسرّة وطرب وشراب، وإذا كانت الملوك على هذه السيرة، فماذا ننتظر من الرعية؟ والجواب هنا واضح، وهو أنّ الناس على دين ملوكهم.

ورغم كون مجالس الأنس والطرب مظهرا من مظاهر الانحراف والانحلال الأخلاقي للمجتمع الأندلسي في عهد ملوك الطوائف نظرا لما نتج عنها من خلاعة ومجون وسُكْر وتعدّي على أحكام الدّين، إلاّ أنّ هذه الظاهرة فُسِّرت على أنّها وسيلة من الوسائل التي اتّخذها الفرد الأندلسي للترويح عن نفسه وخاصّة مع تأثير الطبيعة الأندلسية الخلاّبة، وجعلها سبيلا له للخروج من دائرة الأحداث السياسية والأمنية التي ضيّقت عليه، ونسيان الهموم والمآسي (جباري، 1427-1428هـ/2006-2007م: 234).

كما فُسّرت ظاهرة الشُرب والسُكْر النابعة عن مجالس اللّهو، على أنّها من الأمُور المألوفة لدى المجتمع الأندلسي (سالم، صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، 1976- 1978: 62) كونه مجتمع متحضّر ومتحرّر (هيكل، 1985: 52)، وخاصّة مع حياة الترف والبذخ، لكن في حقيقة الأمر أنّ هذه الأسباب لن تبرّر الانحلال الأخلاقي الذي أصبح عليه الأندلسيين في تلك الحقبة، فهو يعتبر خروج عن الطبيعة والقيم التي نشأ عليها الفرد الأندلسي المسلم.

وفي هذه الحالة يمكن القول بأنّ ظاهرة مجالس الأنس والطرب بالأندلس كانت وليدة تأثيرات داخلية وخارجية غيّرت من ملامح المجتمع الأندلسي وخاصة في عهد ملوك الطوائف، حيث أعطت صورة غير لائقة لمجتمع مسلم دينه دين الأخلاق والقيم؛ وعناصر البحث الآتية ستوضّح ذلك.

ثالثا: نماذج عن مجالس الأنس والطرب في عهد ملوك الطوائف (5هـ/11م):

انساق المجتمع الأندلسي بمختلف طبقاته نحو مجالس الغناء والشراب التي تتعدّدت نظرا للتفاوت الطبقي الاجتماعي، لذا نجد أنّ هناك مجالس خاصّة بالحُكام، وأخرى خاصّة برجال الدولة، ونجد من هي محسوبة على الطبقة العامة، والتفصيل سيكون كالآتي:

أ ـ مجالس الحكّام:

كان اللّهو والطرب قاسما مشتركا بين ملوك الطوائف (الحليم، (د. ت. ن): 296)، حيث كانوا يقيمون مجالس خاصة بذلك ويدعون إليها الأحباب والأصحاب من الوزراء والكتّاب وغيرهما من المقربين إليهم، فأبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل المعتضد بالله (433-461هـ/1042-1069م) ملك اشبيلية، كان يجعل نهاره لتسيير وتدبير شؤون مملكته، ويخصص ليله لمجالس أنسه وشرابه ومرحه (ابن الأبّار، 1985: 42).

واشتهر ابنه محمد بن عباد المعتمد بالله أيضا (461-484هـ/1069-1091م) بولعه بالخمر وانغماسه في اللّذات (ابن الأبّار، 1985: 54)، حيث اهتم كثيرا بإقامة مجالس الأنس والشراب، داعيا إليها مقربيه من الوزراء (ابن الأبّار، 1985: 131) والأدباء والشعراء (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 767-771)، وحتى الأطباء (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 58-59)، ولم يكن يحسّ بطعم الشراب ونكهته، إلا بمشاركة أفضل الجواري عنده مثل جاريته الجملية "وداد" (دوزي، 1994: 101)، ولشدّة تعلّقه بها كان ينشد فيها أبياتا شعريّة لافتقاده لها أثناء خروجه لتفقد أحوال مملكته حيث قال بشأنها (ابن دحية، (د. ت. ن): 18):

اشْرَبِ الكَأْسَ فِـــي وِدَادِكْ وَتَأَنَّس بِذِكْرِهَا فِي انْفِرَادِكْ

قَمَرٌ غَابَ عَنْ جُفُونِكَ مَـرْآ ه وَسُكْنَاهُ فِي سَوَادِ فُؤَادِكْ.

كذلك كان المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس (437-460هـ/1046-1068م) ملك بطليوس هو الآخر، يعقد مجالس أنسه مع وزرائه (ابن سعيد، (د. ت. ن): 365)، وكانت ليالي أنسه فيها حضور كبير (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 120)، يتعاطى جميعهم فيها كؤوس الرّاح ويأنسون ويمرحون (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 142)، ومن أجل الراحة والاستجمام كان يرتاد أحد منيات مملكته وهي منية البديع، التي كانت روضا جميلا بديعا ونظيرا، فيقضي فيها ليالي أنسه ومراحه، إلى أن يتناهى به الأنس ويستفزه الطرب (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 434).

واشتهر أيضا المأمون يحي بن إسماعيل بن ذي النون (435-468هـ/1044-1076م) ملك طليطلة، بكثرة عقده لمجالس اللهو والغناء التي كان يأنس فيها ويطرب إلى درجة بلوغه المجون والخلاعة (ابن بسام، 1417هـ/1997م: 135- 136).

وكان المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح (443-484هـ/1051-1091م) ملك المرية، كثيرا ما يقيم مجالس الأنس مع وزرائه في قصر الصمادحية، حيث كان يقعد على موضع يتداخل فيه الماء ، ويلتوي في نواحيه، «وهو منشرح النفس، مجتمع الأنس» (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 150- 151)؛ (انظر التعليق رقم5).

أمّا أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن رزين (403-436هـ/1013-1045م) ملك شنتمرية الشرق، فاشتُهِر بشغفه الكبير في اقتناء الجواري إلى درجة أنّه اجتمع في مجلس أنسه مائة وخمسون جارية، كنّ جميعهن مضرب الأمثال في الجمال والمعرفة بفنون الطرب (حومد، 1988: 110)؛ وسابقه في هذا المضمار المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس (460-437هـ/1046-1068م)، الذي كان يلتمس شراء الوظائف الملهيات ليأنس بهنّ (ابن عذاري، 1434هـ/2013: 450).

ب ـ مجالس رجال الدولة:

رغم مشاركة الوزراء والكتاب والقادة حكّامهم في مجالس أنسهم، إلاّ أنّهم انفردوا بمجالسهم الخاصة التي كانوا يقضون فيها أوقاتهم مع

بعضهم البعض من أجل اللهو والمرح، فأبو بكر بن عمّار وزير المعتمد بن عباد (ت477هـ/1084م)، كان يأنس ويشرب مع أصحابه وخلاّنه من وزراء وشعراء بقصر الرشيد بن المعتمد مرتجلين ومنشدين فيه أبيات الشعر (البونسي، 2004: 558)، كما اتّخذ أيضا من قصر الدمشق الذي بناه بنو أميّة (المقري، 1408هـ/1988م: 671)، مكانا لراحته وأنسه، ويصف صاحب القلائد ليالي أبا بكر فيه بقوله:«... وبات فيه مع لمّة من أتباعه، ومتقيّلي باعه، كلهم، يحييه بكأس، ويفدّيه بنفسه من كل بأس، فطابت له ليلته في مشيده، وأطربه الأنس ببسيطه ومديده» (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 255).

وكان الوزير الأجلّ أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (ت463هـ/1071م) من أكثر قاصدي جنّات اشبيلية التي انتشرت فيها كؤوس الراح (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 205)، وشغفه بذلك جعله يصف في أبيات شعرية ليلة أنس باتها في إحدى جنّاتها قائلا فيها (ابن زيدون، 1415هـ/1994م: 130):

وَلَيْلٍ أَدَمْنَا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَـــــــــةٍ،
إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُبْحِ، فِي اللَّيْلِ، تَأْثِـــيرُ
وَجَاءَتْ نجُـُـومُ الصُّبْحِ تَضْرِبُ فِي الدُّجَى
فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلُ مَقْهُـــورُ
فَحُزْنَا مِنَ اللَّذَاتِ أَطْيَبَ طِيبِهَـــــــا
وَلَمْ يَعْرُنَا هَمٌّ، وَلاَ عَاقَ تَكْدِيـــــــرُ
خَلاَ أَنَّهُ لَوْ طَالَ، دَامَتْ مَسَرَّتِـــــي
وَلَكِنْ لَيَالِي الوَصْلِ، فِيهِنّ تَقْصِيـــرُ

كذلك اشتهر الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ (أنظر التعليق رقم6)، بمجالسه الحافلة بالأنس والطرب، حيث يصف لنا بن خاقان أحد هذه المجالس بقوله: «... مجلس وجهه كالصباح المسفر، وجلبابه كالرّداء المحبر، وحليه يشرف في ترائبه، وندّه يعبق في جوانبه، وطلائع أنواره تظهر، وكواكب إيناسه تزهر، أباريقه تركع وتسجد، وأوتاره تنشد وتغرد ...» (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 319).

وكان الوزير أبا عامر بن مسلمة في اشبيلية أيضا عاشقا لحياة اللهو والطرب (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 249- 250)، ناشدا فيها أبياتا شعرية كثيرة منها (الحميري، 1407هـ/1987م: 155):

يَا نَدِيمِي قُمْ اصْطَبِحْ وَعَلَى العُودِ فَاقْتَـــــرِحْ
إنّ َمَا العَيْشُ بِالسّمَـــا عِ وَبِالنَّايِ وَالقَـــــدَحْ
وَتَأَمَّلْ حُسْنَ الشَّفَـــا ئِـــــقِ تَنْشَطْ إِلَى المَدْحْ
مِثْلَ كَأْسِ العَقِيقِ فِي قَاعِهِ المِسْكُ يُلْتَمَـــــحْ

كما عُرِف ذي الوزارتين القائد أبو الحسن بن اليسع حاكم مرسيه باسم المعتمد بن عباد (ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، (د. ت. ن): 248)، بشغفه الكبير بمجالس الأنس حتى وُصِف «بعامر أندية النشوة، وطلاع ثنايا الصبوة» (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 493)، ويذكر صاحب القلائد «أنه جعل للمجون موسما، وأثبتها في جبين الأوان ميسما» (ابن خاقان، 1409هـ/1989م: 493).

حتى الوزير أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري(أنظر التعليق رقم7)(ت 487هـ/1094م) في مملكة المرية، كان مولعا بالخمر ومجالسها، منهمكا فيها ومستأنسا بها، وقد أنشد في ذلك أبياتا شعرية قال فيها (ابن الأبّار، 1985: 187):

خَلِيلِيَّ إِنِّي قَدْ طَرِبْتُ إِلَى الكَاسِ
وَثُقْتُ إِلَى شَمِّ البَنَفْسَجِ وَالآسِ
فَقُومُوا بِنَا نَلْهُو وَنَسْتَمِعُ الغِنَا
وَنَسْرِقُ هَذَا اليَوْمَ سِرًّا مِنَ النَّاسِ
فَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي التَّعَلُّلِ سَاعَةً
وَإِنْ وَقَعتْ فِي عَقِبِ شَعْبَانَ مِنْ بَاسِ

من خلال العنصرين السابقين تتّضح لنا تماما فخامة مجالس الأنس والطرب التي كانت تعقدها الطبقة الأرستقراطية من الحُكّام والوزراء والقادة والكتّاب، حيث كانت تقام في القصور والرياض مع خدمة الجواري الحسنيات.

ج - مجالس العامّة:

يعتقد البعض أن مجالس الأنس والطرب قد احتكرتها الطبقة الارستقراطية دون الطبقة العامّة، وجاء هذا الاعتقاد نتيجة تركيز جُلّ

المصادر التاريخية على الطبقة الخاصّة، لكن هذا الأمر لا يعني عدم وجود إشارات تثبت بأن العامّة قد اهتمت بهذه المجالس، فيصف المقري – نقلا عن ابن غالب - طبيعة الفرد الأندلسي دون استثنائه لأي طبقة اجتماعية، بأنه فرد محبّ للّهو والغناء (أنظر التعليق رقم8)، ويعتبر هذا الوصف شهادة صريحة على اهتمام العامّة بحياة اللّهو والطرب، وبالتالي كانت هناك لمّات إخوانية لأجل قضاء ساعات من الأنس والسمر.

ومن أهم الإشارات التي توضّح ذلك أيضا هو ما جاء في نفح المقري من وصفٍ لنهر اشبيلية بأنّه « قد سعد بكونه لا يخلو من مسرّة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناء عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة» (المقري أ.، 1408هـ/1998م: 212).

ومن خلال هذا الوصف نفهم بأن ارتياد هذا النهر كان يشمل الجميع – العامّة والخاصّة - كما يمكن لنا أن نتصوّر تلك الجماعات واللّمات على ضفاف ذلك النهر الحفيف بالشراب والغناء والطرب.

ومدينة اشبيلية ذاع صيتها في مجال الغناء والموسيقى، وشهرتها هذه دامت لحقبة زمنية طويلة، ودليل ذلك جاء مبيّنا في مناظرة أبي الوليد بن رشد القرطبي (ت595هـ/ 1198م) لأبي بكر بن زهر الاشبيلي (ت595ه/1198م) في تفضيل مدينة قرطبة عندما قال: « ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تُباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى اشبيلية» (المقري، 1408هـ/1988م: 155)؛ وفي نفس المجال كانت مدينة مالقة أيضا « إذا ما جنّ الليل قامت أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية» (التجيبي، (د. ت. ن): 14).

وأثبتت الدراسات والأبحاث التاريخية المعاصرة أيضا، بأن الطبقة العامّة اهتمت بمجالس الأنس واللّهو والغناء والطرب، فيذكر الباحث المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش، بأنّ الأندلسيين كانوا معتادين على الاستمتاع بأوقات فراغهم بشتّى وسائل التسلية والترفيه، ومن أهمّها ارتياد الحدائق والمنتزهات، وسماع الموسيقى والطرب، والإقبال على الملاهي ومجالس الخمر (بوتشيش، 1993: 94).

ويضيف المؤرخ المصري السيد عبد العزيز سالم بخصوص ذلك أيضا، بأن مجالس الأنس والطرب التي تدار فيها كؤوس الخمر، كانت من الممارسات اليومية في حياة أهل الأندلس (سالم، 1976- 1978: 62)، وخاصة أنّهم كانوا يميلون إلى التحرّر والانطلاق (هيكل، 1985: 52)، ومن خلال أبحاثه العديدة صرّح بأن أهل الأندلس بطبعهم يحبون اللّهو (سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، 1985: 147)، وهذا ما يوافق وصف المقري سالف الذكر.

كما تذكر الدكتورة مريم قاسم طويل من خلال أبحاثها حول مدينتي غرناطة والمرية في عصر دويلات الطوائف، بأن أهل هاتين المدينتين كانوا مولعين بحب الموسيقى والغناء واللّهو والهزل (طويل، 1414ه/1994م: 253)؛ (طويل، مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح (443-484ه/1012-1090)، 1414ه/1994م: 77).

الخاتمة:

من خلال ما سبق ذكره نستنتج أنّ مجالس الأنس والطرب التي شاعت في الأندلس الإسلامية في عهد ملوك الطوائف (القرن 5ه/11م) هي عبارة عن ظاهرة اجتماعية بامتياز كانت وليدة البيئة الأندلسية المقترنة بالتأثيرات المشرقية، وما شجّع تطوّرها في تلك الحقبة هو الفرد الأندلسي في حدّ ذاته، الذي خرج عن طبيعته ونسي تعاليم دينه وقيمه، حيث اتّبع الشهوات وسعى وراء إشباع رغباته بإقامة مجالس الشراب والغناء.

وتعدّدت مجالس الأنس في عهد ملوك الطوائف على حسب التفاوت الطبقي فالطبقة الأرستقراطية التي تمتّعت بالمستوى المعيشي المترف، كانت تعقد أبهى المجالس في أفخم القصور، وكان أفرادها يحتسون الشراب ويستمتعون بالغناء وسماع الأبيات الشعرية الحاملة للغزل، ويسعدون بخدمة الجواري الحسنيات.

ولم تختلف عنها الطبقة العامّة التي كانت بدورها تقصد جنّات الأندلس من أجل الترفيه والتسلية واللّهو والطرب، والفرق بينهما كان يكمن في فخامة المجالس لتصبح هناك مجالس أنس عادية بسيطة ومجالس أنس ملوكية فخمة .

الهوامش:

1 - وفي عملية امتزاج الأمم الفاتحة والمفتوحة ونتائجها انظر: (أمين، 2012: 16)

2 - الحُجّاب: إن أوّل من اتّخذ الحاجب في الإسلام هو الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (60-14هـ/661-680م) مؤسس الدولة الأموية خشية منه من الاغتيال غدرًا. أنظر: (الصلابي، 1429هـ/2008: 249).

3 - اهتم بعض الخلفاء الأمويين بعقد مجالس الأنس والغناء كما كان حال يزيد بن عبد الملك(105-101هـ/720-724م) الذي بالغ في المجون بحضرة الندماء، حيث كان يأذن لهم بالكلام والضحك والهزل في مجلسه (حسن، 1416هـ/1996م: 434)؛ حتى ابنه الوليد(126-125هـ/743-744م) حذا حذوه في هذا الجانب، فعشق شرب الخمر وسماع الطرب والغناء، ومجالسة أصحاب اللهو والسمر (ابن عبد ربه، 1404هـ/1983م: 198)؛ (المسعودي، 1425هـ/2005م: 177)؛ كما ثبت عن بعض ولاتهم أيضا عشقهم لحياة الترف، وعقدهم لمجالس الأنس (الخربوطلي، 1415هـ/1994م: 149-151).

4 – زرياب: لَقبٌ غلب على عليّ بن نافع لسواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، مشبّهينه في ذلك بطائر أسود حسن الصوت. (الحايك، د. ت. ن: 26) وقصّة مجيئه إلى الأندلس يطول ذكرها، وفي ذلك انظر: (بروفنسال، 1441هـ/1994: 66- 67)

5- وللاستزادة أكثر حول مجالس الصمادحية التي كانت أندية للّهو، أنظر: (أبو الفضل، 1996: 154- 155).

6- أبو المطرف ابن الدباغ: كان في دولة المقتدر بن هود، وجفاه، فاتجه إلى دولة بني عباد، ثم إلى بني المظفر في بطليوس، ولكنه عاد إلى سرقسطة وقتل فيها (ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، (د. ت. ن): 440).

7- البكري: هو العالم الجغرافي الشهير صاحب المصنفات الجغرافية منها: "المسالك والممالك"، و"معجم ما استعجم" (مؤنس، 1986: 123).

8- إن وصف المقري قد سبقت الإشارة إليه.

المراجع:

1 - ابن الأبّار أبي عبد الله محمد بن عبد الله. (1985). *الحلة السيراء* (ط2، ج2). (حسين مؤنس، تحقيق وتعليق) القاهرة: دار المعارف.

2 - أمين أحمد. (2012). *ضحى الإسلام* (ج1). مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

3 - البونسي أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الحسن علي. (2004). *كنز الكتاب ومنتخب الآداب (السفر الأول من النسخة الكبرى)* (مج2). (حياة قارة، تحقيق ودراسة) أبوظبي: المجمع الثقافي.

4 - ا بن بسام أبي الحسن. (1417ه/1997م). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* (القسم الرابع، مج1). (إحسان عباس، تحقيق) بيروت: دار الثقافة.
5 - بروفنسال ليفي. (1441هـ/1994). *الحضارة العربية في اسبانيا*. (الطاهر أحمد مكي، المترجم) القاهرة: دار المعارف.
6 - جباري سامية. (1428-1427هـ/2006-2007م). *الأزمة الأخلاقية في المجتمع الأندلسي كما صورها الأدب (عصر الطوائف والمرابطين)*. رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، الجزائر.
7 - الجبوري يحي وهيب. (1427ه/2006). *مجالس العلماء والأدباء والخلفاء مرآة للحضارة العربية الإسلامية* (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
8 - الجوهري اسماعيل بن حماد. (1399ه/1979م). *الصحّاح تاج اللغة وصحاح العربية* (ط1، ج3). (أحمد عبد الغفور عطار، تحقيق) بيروت: دار العلم للملايين.
9 - دوزي رينهرت. (1994). *المسلمون في الأندلس* (ج3). (حسن حبشي، ترجمة وتعليق وتقديم) (د. ذ. ب. ن): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10 - ابن دحية أبي الخطاب عمر بن الحسن. ((د. ت. ن)). *المطرب من أشعار أهل المغرب*. (ابراهيم الأبياري وآخران، تحقيق ، طه حسين، مراجعة) بيروت: دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع.
11 - الهاشمي رحيم كاظم محمد وشنقارو عواطف محمد العربي. ((د. ت. ن)). *الحضارة العربية الإسلامية دراسة في تاريخ النظم*. القاهرة- ليبيا: الدار المصرية اللبنانية - المكتبة الجامعية.
12 - هيكل أحمد. (1985). *الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة*. القاهرة: دار المعارف.
13 - ابن زيدون. (1415ه/1994م). *ديوان* (ط1). (شرح يوسف فرحات، المحرر) بيروت: دار الكتاب العربي.
14 - الحايك سيمون. (د. ت. ن). *عبد الرحمان الأوسط*. د. ب. ن: د. د. ن.
15 - حومد أسعد. (1988). *محنة العرب في الأندلس* (ط2). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
16 - الحميري أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب. (1407ه/1987م). *البديع في وصف الربيع* (ط1، القسم 2). (عبد الله عبد الرحيم عسيلان، تحقيق وتعليق) جدة: دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع.
17 - حسن ابراهيم حسن. (1416ه/1996م). *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي* (ط14، ج1). بيروت- القاهرة: دار الجيل- مكتبة النهضة المصرية.

18 - حسن ابراهيم حسن. (1416ه/1996م). *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي* (ط14، ج2). بيروت- القاهرة: دار الجيل- مكتبة النهضة المصرية.

19 - طويل مريم قاسم. (1414ه/1994م). *مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح (484-443ه/1012-1090)* (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

20 - طويل مريم قاسم. (1414ه/1994م). *مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (484-403ه/1012-1090م)* (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

مؤنس حسين. (2004). *معالم تاريخ المغرب والأندلس*. د. ذ. ب. ن: مكتبة الأسرة.

21 - مؤنس حسين. (1986). *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس* (ط2). (د. ذ. ب. ن): المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

22 - مدكور ابراهيم وآخرون. (1425ه/2004). *المعجم الوسيط* (ط4). مصر: مكتبة الشرق الدولية.

23 - ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد. ((د. ت. ن)). *لسان العرب* (مج6). بيروت: دار صادر.

24- المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي. (1425ه/2005م). *مروج الذهب ومعادن الجوهر* (ط1، ج3). (كمال حسن مرعي، مراجعة) صيدا- بيروت: المكتبة العصرية.

25 - المقري أحمد بن محمد. (1408ه/1988م). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (مج1). (إحسان عباس، تحقيق) بيروت: دار صادر.

26 - المقري أحمد بن محمد. (1408ه/1998م). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (مج3). (إحسان عباس، تحقيق) بيروت: دار صادر.

27 - المغربي ابن سعيد. ((د. ت. ن)). *المغرب في حلى المغرب* (ط4، ج1). (شوقي ضيف، تحقيق) القاهرة: دار المعارف.

28 - المغربي ابن سعيد. ((د. ت. ن)). *المغرب في حلى المغرب* (ط4، ج2). (شوقي ضيف، تحقيق) القاهرة: دار المعارف.

29 - سالم السيد عبد العزيز. (1985). *في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس*. الإسكندرية: مؤسسة الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.

30- سالم السيد عبد العزيز. (1976- 1978). صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج. *مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية* ، المعهد المصري للدراسات، مج19، 61-82.

31- عبد الحليم رجب محمد. ((د. ت. ن)). *العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف* . القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني.

32 - عبد الصمد محمد. (ديسمبر, 2007). ظواهر الانحراف الاجتماعي في المجتمع الإسلامي ومعالجتها: "رؤية إسلامية". *دراسات الجامعة الإسلامية ،المجلد 4*، ص145- 168

33- ابن عبد ربه أحمد بن محمد. (1404ه/1983م). *العقد الفريد* (ط1، ج5). (عبد المجيد الترحيني، تحقيق) بيروت: دار الكتب العلمية.

34 - علي حسني الخربوطلي. (1415ه/1994م). *الحضارة العربية الإسلامية* (ط1). القاهرة: مكتبة الخانجي.

35 - ابن عذاري أبي العباس أحمد بن محمد. (1434ه/2013). *البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب* (ط1، مج2). (بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، تحقيق وضبط وتعليق) تونس: دار الغرب الإسلامي.

36- الفراهيدي الخليل بن أحمد. (1424ه/2002). *العين* (ط1، ج1). (عبد الحميد هنداوي، ترتيب وتحقيق) بيروت: دار الكتب العلمية.

37 - أبو الفضل محمد أحمد. (1996). *تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

38 - الصلابي علي محمد محمد. (1429ه/2008). *معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره* (ط1). مصر: دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع.

39 - القادري بوتشيش ابراهيم. (1993). *المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع-الذهنيات-الأولياء)* (ط1). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

40- التجيبي أبا الطاهر اسماعيل بن أحمد. ((د. ت. ن)). *المختار من شعر بشار اختيار الخالديين*. (السيد محمد الدين العلوي، مراجعة) (د. ذ. ب. ن): لجنة التأليف والترجمة والنشر.

41- ابن خاقان أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله. (1409ه/1989م). *قلائد العقيان ومحاسن الأعيان* (ط1). (حسين يوسف خريوش، تحقيق وتعليق) الأردن: مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع.

للإحالة على هذا المقال:

- هاجر صاحي، توفيق مزاري عبد الصمد، (2022)، « **مجالس الأنس والطرب في الأندلس – عهد ملوك الطوائف أنموذجا 5ه/11م** -» . **المواقف**، المجلد: 18، العدد: 01، أوت 2022، ص. ص 623- 638.